

1 ذكورة "الأركيلة"

وتميع الحدود بين العام والخاص

³ غير صحيّة² استفاقت بيروت ما- بعد الحرب الأهلية على ظاهرة في⁵ (مع التشديد على المعسل)⁴ وهي تفشيّ عادة تدخين أرغيلة المعسل ويتحكّم بعادة تدخين⁶ المقاهي وخارج المقاهي بين الشباب والشابات. الأركيلة (رأسياً) التراث التاريخي و(أفقياً) الامتثال الاجتماعي، وهي حصراً في الماضي كانت على كبار السنّ من الرجال دون النساء؛ وقد ظهر وجهها الحدائي مؤخراً في طاقة الاستهلاك وتسويقه، فالإقبال عليها من جانبي البضاعة المستهلكة، أيّ جانب المشتري وجانب البائع، بات يفوق التصور. وقد باتت هذه الظاهرة لا تمثلها الذكورة وقواعدها المستترة

"الأركيلة" (لغوياً) هي ما اعتاد على لفظه البيروتيين في العامية؛ وأصل الكلمة لغوياً "النارجيل" تعني الجوز الهندي. معرّب ناركيل¹ وقد استخدمناها بمعنى الأركيلة تشبيهاً لها بشكلها. انظر محمد ألتونجي، معجم المعربات الفارسية في اللغة العربية، دمشق: دور الأدهم، 1982. ص. 150. مختلف لفظ "الأركيلة" في البلاد العربيّة، انظر،

Kamal Chaouachi, *Tout savoir sur le narguile*, (France, Maisonneuve & Larose, 2007) 33.

بدأت هذه الظاهرة في بيروت أوائل التسعينات من القرن المنصرم وقد ارتبطت خاصة بتدخين المعسل والخيم الرضائيّة، التي اعتاد² عليها المصريون للسهر أيام شهر الصيام في رمضان. وقد انتقلت هذه الظاهرة الى بيروت على يد أحد اللبنانيين الذين أقاموا في مصر أيام الحرب.

³ لقد أكدت القرائن العلميّة بشكل لا لبس فيه بأن تعاطي التبغ والتعرّض لدخانته يتسببان في الوفاة والمرض والعجز لذلك هناك قلق الأسرة الدوليّة أزاء العواقب الصحيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة والبيئيّة العالميّة النطاق لتعاطي التبغ والتعرّض لدخانته. انظر الى "اتفاقية منظمة الصحة العالميّة الإطاريّة بشأن مكافحة التبغ."

ونظر الى أثر تدخين الأركيلة على الصحة في المونوغراف التي أعدّها كل من ألان شحادة وتوماس أيزنبرغ:

"Tobacco smoking using a waterpipe: Product, prevalence, chemistry/Toxicology, pharmacological effects, and health hazards." A monograph prepared for the WHO Study Group on Tobacco Product Regulation (TobReg) 29 April 2005. 1-36.

هناك ثلاث أنواع من التنباك متوفّرة للبنانيين العجمي الإيراني (الأصلي) والنكهة التركي (الأخف) والمعسل الذي لا يحتاج الى خبرة⁴ بل تكفيه نارة واحدة ليشتعل كل النهار. وقد انحسر مدخّنو التنباك العجمي الى 15 في المئة من مجمل مدخّنو الأراغيل، وصار 85 في المئة منهم من مدخّني المعسل. ويصنع المعسل اليوم في طرابلس لبنان ويستورد خاصة من الإمارات ومصر. وهناك حصر على استيراد جميع أنواع التنباك من قبل "إدارة حصر التبغ والتنباك اللبنانيّة"، وطبعاً هناك التهريب الذي يبيع من خلال المهريين أسوأ أنواع التنباك. والفرق بين العجمي والنكهة والمعسل ان حرق دخان الأخير عالي الدرجة ويضاف اليه مادة الغليسيرين والسكر ومكسبات الطعم الى التبغ لتوزّع الأمراض الصدرية والسرطانية بصورة أوسع.

يحتوي المعسل وهو التبغ المطبوع على 4000 مادة سامة أهمها مادة النيكوتين او غاز أكسيد الكربون والقطران والمعادن الثقيلة⁵ والمواد المشعّة والمسرطنة والمواد الكيماوية الزراعيّة وحتى مبيدات الحشرات. وأرغيلة الفواكه الخالية من التبغ والتي تحتوي على بعض قشور الفاكهة مثل التفاح، والكانتالوب، والعنب يتمّ تخميرها ومعالجتها بالمولاس وهو العسل الأسود او الجليسيرين كمادة لاحقة، وتكمن خطورة الجليسيرين ان حرقه عن طريق الفمّ يؤدي الى تكوين مادة الأكلورين، وهي من المواد الشديدة السميّة والتي تسبب في سرطان المثانة.

يعزو الكثير من البيروتيين دخول الأركيلة "المعسل" الى بيروت الى عام 1994 على يد أحد "صبيّة" الأعمال اللبناني المقيم في⁶ مصر وسيم طبّارة الذي أدخل أول خيمة رضائيّة تقدّم الفول والطعميّة الى جانب الأركيلة. انظر، "الفارق بين مضارب بيروت 2000 ورمضان أيام زمان"، "الحياة"، 2000-12-23.

فالأنوثة أمسكت بالرغبة فيها بعد مجارات المرأة للرجل في كثير من ميادين العمل، ولا يبدو (أقلها في لبنان) انها مقيدة باعتبارات رسمية⁸ او السلامة العامة.⁷ لمراقبة معايير الصحة

وصورتها المتغيرة!⁹ يهتم هذا البحث بالأخص بذكورة الأركيلة سنقدم شهادتين واحدة من أحد أعيان بيروت وواحدة من سيدات بيروت. نعطي صورة خلفية لتاريخ طويل لتدخين الأركيلة في المجتمع البيروتي. ثم سنقدم مسار الأركيلة الأخير الذي أخذها من المقهى التقليدي والشعبي الى مقاهي "المراكز التجارية الحداثيّة" (المول)، والمساح وصخور البحر ورصيف الشارع وآخرها حيث لا مقرّ لها، تنتقل من بيت الى بيت مع مقهى "التوصيل" (الداليفيري). سنحلل من خلال صور ناطقة، التقنت لشباب وشابات تدخن في سياقات إجتماعيّة غريبة، تحليلاً "جندياً" لنرى كيف تشارك الأركيلة في تمبيع الحدود بين العام والخاص والذكورة والأنوثة والصحة والإستهلاك.

⁷ ان دستور منظّمة الصحة العالميّة تؤكد على ان التمتع بأعلى مستوى من الصحة يمكن بلوغه هو أحد الحقوق الأساسية لكل إنسان، دون تمييز بين إنسان وإنسان في النوع (الجنس) والعرق او الدين او العقيدة السياسيّة او الحالة الإقتصاديّة والإجتماعيّة.

⁸ بسبب الظروف السياسيّة الحاليّة في لبنان تغيب الدولة عن أداء كثير من واجباتها مثلاً، أزاء مراقبة السلامة العامة في المقاهي التي تقدّم الأراغيل على أنواعها (كتقديم الأراغيل للقصر) ومراقبة اشكال الإعلان والترويج والرعاية الرامية الى التشجيع على استهلاك منتجي التبغ.

⁹ يعود تمثّل الأركيلة الى الذكورة قبل الأنوثة بسبب قياسها شكلاً على الذكورة البيولوجيّة وبسبب استحواذ النظام الأبوي على المقاهي العامة التي ارتبطت بتدخين الأركيلة. اليوم كما سنرى للأرغيلة أنوثتها لأسباب سيضئى عليها البحث.

1. شهادة لأحد أعيان بيروت "الأركيلة نزهة يأخذ بنبريجها كبار السن كما¹⁰ يأخذ به شبابنا"

الأركيلة نزهة، استراحة، لحظة صفاء، ساعة تأمل، الهدوء مع الذات، ضغضة رناتها، والدخان العابق من حولها، إضافةً الى نارة تشتعل وأخرى تهمد، وفنجان القهوة على الطاولة، وعشعشة عبقها في المخيلة تجعل من شاربيها سلطان يجلس على مقعد يتكلم إذا شاء ويصفن إذا شاء، يحلل مشاكله على طريقته، كل ذلك نتيجة تنبك عجمي أصيل ونبريج من جلد الخاروف ووعاء من الكريستال التركي إضافةً الى الصفات المميزة والنعوت المعطاة لكل قطعة منها: فهي نبريج، وسبع نحاسي مدقوق في زواريب طرابلس العتيقة، يحمل رأساً فخارياً متعدد الصفات والأشكال فهو طمازي حيناً وطرابلسي حيناً ومصري مبلطح حيناً آخراً لإخفاء تحت التنبك ما شاءت عبقرية مقاهي مصر ان تُخبأ. تنوعت ألعبيها وتطورت صناعتها، فهناك العجمي الأصلي، والأصفهاني المميز، والبزرة العجمية اللاذقانية والنكهة الأردنية وأخيراً المعسل وأنواعه. فمن معسل التفاح والموز والتمر والى ما شاء الله ان يضع مع التنبك من فاكهة جافة وغير جافة ومن مواد محللة ومحرمة.

قصة عجيبة هذه الأركيلة، فمن بلاد فارس الى دوواين سلاطين تركيا الى قصور مصر، ها هي تنتهي في قلب بيروت حيث تبدل الكريستال الى بطيخة جوفاء وبدل التنبك الصافي اعقت ساحة المعرض بدخان هو مزيج من العسل والعفن. وبدل ان يأخذ كبار السن بنبريجها ها هو شبابنا، بفتيانه وفتياته، يمسك بنفس النبريج اليافع ويدخن عليها علها تنجلي. وبانبعاث دخانها تلبدت الغيوم في سماءنا وتلبدت عقولنا واصبحنا تائهين نبحث عن حل لمشاكلنا، ولحل هذه المشاكل نهرب مرةً أخرى اليها، لنستمر في ضياعنا وجنوننا.

2. شهادة إحدى سيدات بيروت على لسان أبيها "المسألة ليست مسألة دخان ورأتين ونباريج ومقهى إنما المسألة مسألة وجود ثقافي"

تربيت في بيت يدخن أبي الأركيلة وكذلك أمي تدخن الأركيلة، ويتبادلان ويضحكان على سرعة أخذ وإعادة النبريج بينهما مما يدل على¹¹ "النبريج" بينهما،

تنقسم الأركيلة المصنعة محلياً الى أقسام عدة:¹⁰

1. القلب، وهو من النحاس المطعج وهو صناعة محلية كاملة قد يضاف إليه الكلاوزوني الصيني المزخرف.
 2. الصينية، وهي من النحاس المصنوع محلياً.
 3. الفزارة، التي تملأ بالماء لتنقية النيكوتين وسماع التقسيمة التي تصدرها الكركرة. وهي إما صناعة تشيكية وهي الأجود، أو مصرية، أو صنع طرابلس لبنان. وهناك معمل لخرقتها في بيروت في النويري وهو معمل الحلواني.
 4. البريش او النبريش او النبريج، كما يسميه الناس، وهناك معامل عدة لصنعه في برج البراجنة والأوزاعي.
 5. الرأس، وهو من الفخار ويصنع محلياً، لوضع التبغ فيه.
 6. الميسم، وهو من البلاستيك يوضع في أول النبريش حتى لا تنتقل رائحة قم المدخن الى النبريش، وهو صناعة محلية.
 7. الجوانات، وهي من البلاستيك وتوضع كوسيط ما بين قلب الأركيلة الزجاجية وبين أعلى القلب والرأس، لضمان عدم تنفيس الهواء من القلب.
- أصل كلمة "النبريج" لغوياً أنبوب النارجيلة معرب مركب من "مار+ بيج ملتف. إنفاف". فالمعنى الثعبان الملتف. لغةً: بربيج.¹¹ نبريج. انظر ألتونجي، نفس المرجع.

رغبة في الدعابة واللعب. أذكر صورة ستيّ لأمي على صورتين: صورة لها تصليّ وصورة أخرى لها ونبريج الأركيلة بتمها تدخن. خالتي الكبيرة، رحمها الله، كانت تزور جدتيّ يومياً عالصريّة؛ كانت خالتي تشتغل صوف بالسنّارة وهي جالسة على الديوان، وتخلص الكنزة ورأس نبريج الأركيلة بتمها وسنّارة الصوف بإيدها. وقد تضحك ويبقى النبريج معلّقاً بين أسنانها لا تتركه.

إذا كانت والدتي ووالديّ يحبّان الأركيلة، وستيّ من جهة أمي وخالاتي، وزبونات العصرية، وهن كثار، يحبّون الأركيلة، ويتنشّقونها في "قودة القعود" (غرفة وعلى السطّيحة في الصيف، فأنا لم أعرف جدّي وجدتيّ¹² الجلوس) في الشتاء، لأبي، فقد توفّاهما الله قبل ولادتي، لذلك لم أرهما شخصياً والأركيلة. إلا ان بخزانتني الخاصة صورتان لكليهما، يظهر كلّ منهما وبفمه نبريج الأركيلة، مما يعني عدّة أمور: أولاً ان الإثنين اختاروا أخذ الصورة الفوتوغرافية النادرة في تلك الأيام وهما مع الأركيلة؛ ثانياً يظهر جدّي باللباس الشروال ونبريج الأركيلة بتمو، بينما تظهر جدتيّ بغطاء الشعر الأبيض الشفاف، ونبريج الأركيلة بتمها، مما يدلّ انه لا يوجد مانع معنوي من ان تدخن الستّ ويؤخذ لها صورة مع الأركيلة. ويعني أيضاً ان تدخين الأركيلة في جيل جدّي وجدتيّ، الذين كانا من مواليد بداية القرن العشرين، هو فعل للترفيه يساوي بين الرجل والمرأة في الخاصّ (مساواة جنديّة). كان يقال لفعل التدخين "يشرب"، ربما لوجود الماء في الزجاجاة، ويلقّب اسمها أحياناً بال"نفس" لنتشّقه من الفمّ الذي يرتبط بفعل التدخين.

ولأبي، ولدهما البكر، تاريخ طويل مع المقاهي حيث "يشرب" أرغيلته. ففي كل مسكن من المساكن التي انتقل إليها، أطل الله بعمره، كان له قهوته. ففي المدينة التي عاش بها سنينه الأولى من عمره وعمله وزواجه وتربية الأولاد كان له قهوته حيث وحين هاجر الى مصر في السبعينات، كانت له قهوته في¹³ "يشرب" أرغيلته. السوق القديمة. عندما عاد أبي الى مسقط رأسه لبنان للتقاعد بحث عن القهوة الشعبية التي سيكون له فيها كرسيّ قشّ ليجلس عليها ويدخن الأركيلة. حكى أبي ام لا مع الكثير¹⁴ رواد المقهى، كانت الوجاهة بادية على أبي، فأبي يحمل من قيم الرجولة وهو يختار ان يكون، في أرغيلته، في المقهى مع الناس. وان أجري لأبي عملية فتح قلب بسبب انسداد الشرايين (وورم في المثانة البولية تتصل بالتدخين)، لم يتوقّف أبي عن تدخين الأركيلة، فالمسألة كما قال لي أبي "ليست مسألة دخان ورأتين ونباريج ومقهى إنما المسألة مسألة وجود ثقافي." فأبي كان يقرأ الروايات وهو شاب، ويتبادل في المناسبات الإجتماعيّة الزيارات مع أمي، وحضور الحفلات

أصل كلمة "قودة" من التركيّة "أوطه" أو دا وتعني حجرة، غرفة.¹²

في العاميّة البيروتية لا يقال يدخن "الأركيلة" بل يشرب "الأركيلة"!¹³ تظهر صورة الرجولة عند الأب في جيل أبائنا في الهيبة والوقار والمسؤوليّة التي يأخذها على عاتقه في رعاية العائلة، والحفاظ عليها في أمنها: في أيام السلم كأيام الحرب. وكان الأب، بالنسبة الى الأم والأبناء والبنات مخيفاً لأن نظامه الأبوي متشدّد، ومعانيه تحمل كثير من اعتبارات للناس ونظرتهم التقليديّة الى نظام الأسرة والحريّة الشخصية والحراك الإجتماعي للفنّاء والفتاة. ويمثّل الأب السلطة المهمّنة بامتياز فهو ربّ الأسرة والعمل، تحمل أفراد العائلة اسمه ويده سلطة القرارات المصيريّة، وأيامه كانت المرأة بالكاد دخلت ميدانيّ التعليم والعمل. ويبدد الأب قرارات الحركة اليوميّة التي تراعى بها الحفاظ على كثير من تقاليد السمعة الطيبة والكرم والشجاعة ومساعدة الآخرين وهذه عادات عربيّة أصيلة تغيّرت عند الجيل الجديد. لتغيّر معاني الرجولة انظر، عزّة بيبضون، الرجولة وتغيّر أحوال النساء: دراسة ميدانيّة، (بيروت: المركز الثقافي العربي، 2207).

الموسيقىّة الليليّة أحياناً، وكذلك قاما معاً في عدد من السفرات الى الهند وأوروبا حتى أنهما، أبان الحرب الأهليّة اللبنانيّة، هاجرا الى أميركا الشماليّة. لكن أبي في ثقافته اليوميّة المؤقّنة، الصبح والعصر، له قهوته الصباحيّة برأس واحد أرغيلة، وقهوته المسائيّة برأس واحد أرغيلة. الأركيلة لا تأخذ أكثر من ساعة مثل النادي الرياضي الذي لم يكن موضة أيّام زمان. فالنادي يذهبون اليه رواد التريّض في العالم الغربي بعد العمل... او قبله. لكن أبي يتريّض في قهوته مع "نفس" الأركيلة. وأبي اليوم فوق الثمانين من العمر ولا يزال النبرج بيده وان يشعر كثيراً بتراجع العادة عن الماضي.

3. الأركيلة بين العام والخاصّ:

لم يكن تدخين الأركيلة في العام، كما رأينا في هذه الشهادة، غريباً على اللبنانيين في الماضي، لكن كان حصراً على الرجال التقليديين وكبار السنّ في المقاهي الشعبيّة. وقد اشتهرت السيّد البيروتية في تدخين الأركيلة في الخاصّ، في البيت وعلى الشرفة أيّام الصيف. الا ان انتقلت الأركيلة، من المقهى الشعبي (مكانها التقليدي) حيث انظار رواد المقهى تتجه الى الداخل، الى المقهى الحدائي (على الطريقة الغربية) حيث انظار رواد المقهى تتجه الى الخارج. وقد انتقلت الأركيلة من مكانها التقليدي حتى الى أماكن غير مخصّصة للتدخين، وبل ليست بمقاهي أصلاً. وكما غيرت الأركيلة سيرتها فانقلت من "مقهى الداخل" الى "مقهى الخارج" (والتسمية لصاحبة المقال)، وكما نوعت إقامتها بين الأحياء التقليديّة و الأحياء الحدائيّة (التي سعدت بعد الحرب كمنطقة فردان مثلاً)، فقد غيرت تنباكها من العجمي الأصلي او النكهة الى المعسل على وقد كيفت الأركيلة بالمعسل شاربها من جيل الشباب والشابات¹⁵ أنواعه، الصاعد في أماكن لا حصر لها: على الأرصفة في الأحياء الشعبيّة، وعلى صخور البحر في الأحياء الراقية، وفي المقاهي "المودرن"، وداخل الخيم

ان أنواع المعسل عديدة منها على عنب ونعنع وشّمّام وتّفّاح و اللبناني الذي يصنع في طرابلس هو على عنب وتّفّاح .¹⁵

الرمضانيّة، مما حوّل صورة بيروت (مجازياً) الى امرأة مسترخية في "الحرملك"، كما رسمتها مخيلة الفنانين الأوروبيين المستشرقين (في¹⁶ لوحات القرن التاسع عشر).

أ. غيرت الأركيلة سيرتها (من مقهى الى مقهى) مما أفقد الرجل علاقة له مع الأركيلة هي بالدرجة الأولى "فولكلور" وذكوريّة؟ ارتبطت قديماً عادة تدخين الأركيلة بالرجال وبالتردد على المقهى وبالحاجة الى التواصل مع الأصدقاء بالأحاديث والنوادر، وتلقّي الأخبار على انواعها، وتمضية أوقات الفراغ في لعب الورق او طاولة الزهر، حتى ان بعض المقاهي أخذ طابع "الأنديّة الخاصّة" ومفاتيح مكاتب للزعامات وكانت صورة المقهى، برجاله وأراغيله، تعبّر عن مجتمع¹⁷ البيروتية. ذكوريّ سعيد بفصل العام عن الخاصّ، واثق من مساحته التي لا تشارك بها الأنثى وترميزاتها. الى ان انتقلت الأركيلة، بسبب التغيير الديموغرافي الذي حصل (قسراً) بعد تدمير الحرب الأهليّة لجزء كبير من ساحات بيروت القديمة (كالبرج والمعرض) من المقهى التقليديّ الشعبيّ الى المقهى، الذي صمّم¹⁸ الحداثي (مثلاً داخل تجمّعات التسويق في فردان والأشرفيّة) على الطراز الأوروبي. وعندها أخذت الأركيلة حريّة لا سابقة لها، حين لم ترى حرجاً من القعود في المقاهي الحداثيّة وحتى على أرصفة الشوارع، تمسك بنبريجها بالشكل العلنيّ الفتيان كما الفتية على مرأى من المارة. ففي

فكما ان نبريج الأركيلة في العلنيّ كان عملياً بيد الرجل، كان نبريج الأركيلة يسترخي في الخاص بيد المرأة. لذلك للأرغيلة صورة¹⁶ ذكوريّة وأنثويّة في ثقافتنا الاجتماعيّة: صورة ذكوريّة لمقاهي الرجال التي تحنكر تدخين الأركيلة وصورة أنثويّة لجلسات النساء في صالونات البيوت مستقلقيّة ومسترخية.

انظر، شوقي الدويهي، تاريخ مقاهي بيروت الشعبيّة 1950-1999، (بيروت، دار النهار للنشر، 2005)¹⁷ أدخلت الأركيلة مؤخراً الى "مقهى أموري" في تجمّع فردان التسويقي (الذي يسمّى 730) كما أدخلت الى مقهى "كافيه بلون"¹⁸ (المقهى الأبيض) في تجمّع أ ب سي التسويقي في حيّ الأشرفيّة. أي لم تتفد الأركيلة بالفرز السكني الطائفي التي أصبحت تعبّر عنه هويّة السكان.

حين كانت عيون مدخن الأركيلة منصبة على طاولة الزهر او على لعبة الورق (الكوتشينة) او على دخان أرغيلته، تحولت عيونه الى المشهد الخارجي، حيث تدخل المارة الى المحلات (داخل تجمع التسويق) وتخرج منها، او حين تكون الناس في ذهابها وإيابها الى عملها مشياً على الأقدام في الشارع او في السيارة، فأصبحت عيون مدخن الأركيلة تحمل الحشوية والنظرة المتطفلة بعد ان كانت مستترة "تصفن" وهي تتأمل دخان "النفس"، او يروق مزاجها عند سماع كركرة الماء الصاعدة (من تفاعل الهواء مع الماء)، او يهدئ بالها عند الانتظار بين "نارة" و"نارة"، مما أفقد المدخن علاقة له مع الأركيلة هي بالدرجة الأولى "فولكلور" و"ذكورية". فولكلور "لأن الجماعة الإجتماعية تعدّه صحيحاً وطيباً بسبب مطابقته للتراث الثقافي القائم"، وذكورية بسبب النظام الأبوي وعالم الرجولة الذي ارتبطت صورته بالعام مما أكسبه سلطاناً وقوة. هذا الفقدان للعلاقة مع الفولكلور الأركيلة وذكوريته، جعلت الفرد، كما يقول عبد السلام بن عبد العالي (في مفهوم الاستهلاك)، لا يستهلك الدخان بل ما بعد الدخان اي لا يستهلك الرغبة بل ما بعد الرغبة.

ب. بين "المركز التجاري" (المول) و"رصيف الشارع" و"صخرة البحر" و"الدراجة العابرة شوارع بيروت" تشارك الأركيلة في تجميع الحدود بين الخاصّ والعام والذكورة والأنوثة والصحة والإستهلاك.

مقهى المركز التجاري (المول):

في شارع فردان الرئيسي الذي سعد بعد الحرب، مركزان حدثيان (مودرن) للتسويق مواجهان لبعضهما، يسمّى المركز الواقع الى الجهة

الشرقية رقم 732 ويسمى المركز الواقع الى الجهة الغربية رقم 730. تقدّم الأركيلة "المعسل" في الأوّل في مقهى يسمّى "أموري" وتقدّم الأركيلة . في حديث لي مع مدير¹⁹ المعسل في الثاني في مقهى يسمّى "جاي أن دي" ، التي²⁰ مقهى "جاي أن دي" ، السيّد م. ك. ، أخبرني الأخير ان شركته اشترت المقهى منذ سنة وشهرين ، "كانت تجيب الأراغيل من الخارج، لكن منذ أسبوع منعمل أراغيل". سألت السيّد ك. عن رأيه في تسويق الأركيلة في مركز تجاري حدائي فأجابني:

أكثر شي ماشية! أكيد حلوة، بتعطي "قعدة"! العالم بتقصد كرمال الأركيلة. ماذا تعني قعدة؟ يعني السجارة لا تلزمك ان تقعد لفترة طويلة، لكن الأركيلة حتى تخلص للآخر بدها قعدة، وأهم ما في القعدة هي الجمعة، ايّ جمعة الأصدقاء التي ليس بالضرورة ان تتكلم بسبب الحركة التي تظلل مستمرة بين أخذ النبريج والتنشّق والنفخ. للأركيلة لغة تعوّض عن قلّة الحكي والمواضيع.

من هم روّاد المقهى؟

سنات ورجال والسناات أكثر من الرجال!

كيف بتشوف شرب الستّ للأرغيلة في العام؟

الأركيلة بإيد الستّ مثلها مثل السجارة، الفرق بدل ما يدخل الدخان لجوّه بيخرج لبرّه.

ليش بحبّوا المعسل؟

لاحظ ان التماثل بالحضارة الغربية الحديثة ظاهر في تسمية مركز التسويق بأرقام كما ان اسم المقهى يستخدم الحروف الأولى لإسم الشركة التي أصبحت صاحبة المقهى لا الأفراد، ويحمل الإسم ظاهرة الاختصار والاختزال الشائعة في الحضارة الأميركية، لذلك يحمل الإسم دلالة مناقفة لبنانية أميركية هي صورة عن العولمة الحديثة.

لاحظ كيف أصبح صاحب المقهى شركة بينما في الماضي كان يهتم صاحب المقهى بنفسه بزبوانته مما يلقي على المقهى صفة²⁰ خاصة واهتمام شخصي.

المعسل بيمشي أكثر من العجمي، بحبّوه لأن فيه نكهة، مطعم بينما العجمي ناشف. أنا منّي وعلّي العجمي كثير ثقيل.

هل بتفكرّ الناس بصحتّها؟ ما حدن بفكرّ بالصحة كلّ همها تموّه وتنسى.

في حديث لي مع مدير مقهى آموري في مجمع رقم 732 المواجه سألت

مدير المقهى ح.ب. الأسئلة التالية؟

لما أدخلتوا الأراغيل في مركز له مثل هذه الطلّة الحداثيّة؟

بدأنا بالأراغيل لنميّزها عن باقي المقاهي، فهنا لا نقدّم الكحول بالمحلّ، لأن

المسلمين بأغليّتهم لا تشرب الكحول، والمجتمع الشرقي لا يتقبّل

²¹السكران.

كم أرغيلة بتبيع في النهار؟

بأيام "العجقة" (الهاي سيزان) أربعين الى خمسين أرغيلة في النهار. كلو

معسلّ على أنواع، ونشتري التبغ طبعاً من شركة حصرالتبغ اللبنايّة لأن

ممنوع نجيب تبغ من برّه.

هل المعسلّ صحّي؟

أضّر شي المعسلّ! كل المعسلّ عاطل. والناس ما بتفكرّ بالصحة. (نظرت

الى الدخان العابق في هذا المقهى الصغير ورأيت حول كلّ طاولة أرغيلة

بل عند بعضها أربع أرغيل). أسرع وقال لي محاذراً "بالشّاء ممنوع

الأركيلة في الداخل، لكن في الصيف الجوّ حارّ ويوجد ماكنات لشفط

الدخان."

خرجنا من المقهى الذي أصبح مميعاً بين ما هو الصحّي وما هو سوق

الإستهلاك (بسبب غياب ايّ رقابة على المقاهي من وزارة الصحة) بعد ان

انظر الى سخريّة الموقف بين الحضارات فان المدن الغربيّة تقوم اليوم بأكبر حملة لتنظيف مقاهيها ومدنها من التدخين على أنواعه ²¹ لكن لا ترى ضرراً من شرب الكحول او رؤية السكران بينما ترى المدن العربيّة والإسلاميّة شرب الكحول آفة الأفات ولا ترى للتدخين على أنواعه خاصّة الأراغيل على انه آفة.

استرسلنا بالحديث مع فتاتين تشتركان في تدخين أرغيلة وهما في الرابعة عشرة من العمر.

الشواطئ على صخور البحر وعلى المقهى المجاني

وكما انتقلت الأركيلة من الحيّ والساحة الى المركز التجاري "المول" بالإنكليزية، انتقلت في أيام الصيف الى البحر في أماكن غير مخصّصة رسمياً للسباحة كالصخور المشرفة على كورنيش البحر. ولا ترتبط السباحة، من حيث مبدأ الرياضة، بالتدخين عموماً فكيف بتدخين الأركيلة التي لها طقس خاصّ وعامل الوقت فيه مهم جداً. المكان غير مخصّص للسباحة وبل فيه من الخطورة على سلامة هؤلاء الشباب، ومكشوف للعيان على الطريق، مما يجعل السابحين فوق الصخور وبينها ومن تحتها، صورة هذا²² بانورامية للمشاة، صورة فاضحة لكل سلوك يقومون به فيما بينهم، بغضّ النظر عن التدخين بين الفحمة والصخرة؟ وترى الشاب على الصخور ونتواتها الحادّة، بلباس البحر (المايو) الذي هو عبارة عن شورت او "بيكيني"، مستلقياً، ومعه الجميع مستلقون او جالسون او نائمون وبأياديهم نباريج الأراغيل، مما جعل المشهد يبدو ك"عرض للذكورة بامتياز." فالانتصاب البارز في لباسهم البحري يتجانس مع انتصاب النباريج بأيديهم، وكذلك يتجانس مع نتوات صخور بحر بيروت. لكن هذا الاسترخاء مع الأراغيل كانت صورة أنثوية لا ذكورية، تشير أيام فصل العام عن الخاصّ الى بطالة وفراغ عند المرأة كبيرين. فهل يحمل هذا الإعلان الذكوري ايّ رسالة الى مشهد بيروت العام، يتنازل به الشاب عن الصورة الأبوية التقليدية والسوية التي كانت عيونها مستترة في مقاهي

قد تكون هذه الصورة نموذجية للوضع الاجتماعي الفاضح عند هؤلاء الشباب- العاطلين عن العمل او المستائين من سلطة الدولة او الأب الضائعة.

الداخل/ اوهو يفصح عن طاقة جنسيّة مكبوتة من المفترض ان تمسك
بيدها أشياء كثيرة كالعامل والطموحات والزواج عوض عن التبرج
بإمساك النبريج والأركيلة؟

على نفس هذه الوتيرة تجمّع شبّان أبان العدوان الإسرائيلي الأخير على
لبنان (تمّوز 2006) حيث قطع من عروق طرق لبنان أكثر من ستّين
جسراً، تجمّع شبّان في ضاحية بيوت الجنوبيّة حيث القصف كان على أشدّه
يدخّنون أمام ركام العمارات المتناثر، والسيّارات المكسّرة، والأسلاك
الكهربائيّة التي تمتدّ فوق المكان كخطوط تضيف الى المنظر سوراليّة
دراماتيكيّة. تجمّع شبّان ثلاث للجلوس في الفلاء المطحون: واحد يمسك
بالنبريج والآخر ينفخ من نبريجه الدخان والآخر واضعاً كفيّه حول وجنتيه
من هول الحدث يصفن بلا نبريج، تجمّع شبّان وهم يميلون ويسترخون
ويتأمّلون فولكلورهم الضائع وذكورتهم المؤجّلة (صورة). فلماذا الأركيلة
إذاً؟

بالمقابل ترى الشابات، كن بلباسهن المحافظ (محجّبات) اوبلباس
الموضة الأوروبيّة (الجينز الضيق وال "تي شيرت" القصيرة) تدخّن
ولا يخفي على ايّ ناظر ماذا يعني نبريج²³ ماسكة بنباريج الأراغيل للعيان.
الأركيلة بيد الفتاة، محجّبة كانت ام سافرة، جميلة كانت ام قبيحة، كان
الناظر اليها لبنانياً يرى من الداخل ام كان عربياً يرى من الخارج؛
فالأركيلة والنبريج المتدلّي منها، بغضّ النظر عن احتمالات توظيفه
لأغراض جنسيّة أم لا، يحمل بسبب شكله وحركة تنشقّ الدخان مشهد يثير
للخيال والدهشة والإشمزاز عند البعض. فالستّ (اللايدي بالإنكليزيّة)،

انظر الى هذه النماذج في قهوة شاتيلوا الواقعة قرب منارة بيروت الجديدة التي قصف رأسها طيران الجيش الإسرائيلي في العدوان
الأخير على لبنان عام 2006.

على حدّ تعبير أحد البيروتيين، لا يليق بها ان تجلس جلسة الاسترخاء مع هذا النبريج الطويل المنتصب الرأس، في أماكن عامّة على تنوّعها. وقد تداولت شبكة الإتّصالات الإلكترونيّة (الإنترنت) صورة عنوانها "فقط في بيروت" لفناة تشبه حوريّة البحر، مستلقية في مسبح اشتهر في الماضي بأناقة المشتركين/ات وزوّاره، لكن في الحاضر تلقى الضربات بالعوبات²⁴ المتفجّرة الواحدة تلو الأخرى، وأصيب بانفجار ألحق به الى خراب جديد. تظهر هذه الحوريّة في صورة مستلقية وأمامها أرغيلة معسلّ منتصبة، وتمسك هذه الحوريّة نبريج الأركيلة وهي تنفخ دخّانه الذي يصعد من فمها ممتدّاً ومكثفاً ليغطّي صورة الفجوة الكبيرة والسوداء في الدور المتصدّع من الفندق الملحق بمسبح السانت جورج، وكان دخان هذه الحوريّة ليس للتحديّ فقط على صعيد المشهد: بعرضها الجسماني - حيث تستلقي على مسافة أفقيّة أكبر من مسافة الأركيلة العاموديّة - ولا يدلّ هذا التحديّ بالضرورة من جانب الأنوثة انه معن ضدّ الذكورة وقيمها - بل يدلّ على التحديّ القائم ضدّ الزمان الذي أرادت به النفخ على الأحداث المروعة فغطّي دخّانها، وان عن غير قصد، جدران الفندق المتصدّع وشرفته الواقعة حجارتها بعضها على بعض (صورة). وكان هذه الصورة السوراليّة صورة طبق الأصل للتورية وراء جيل يدخّن أكثر مما يفعل لأسباب كثيرة منها عدم إستقرار الأوضاع الأمنيّة والسياسيّة والإقتصاديّة التي نتج عنها خيبات أمل عند الشباب والشابات كبيرة، سببها البطالة والهجرة وضياع الفرص وفقدان الهويّة الوطنيّة. فهل ما تحمله صورة هذه الحوريّة هو إعلان عن أنوثة تحديّ الذكورة في هذا التدخين العلني والمسترخي على

حدث هذا الانفجار مع انفجار موكب الرئيس السابق لمجلس الوزراء، رفيق الحريري، الذي أدّى الى مقتله مع رفاق له.²⁴

الشواطئ؟ (ليس بالضرورة) اوهي أنوثة تسخر من النظام الأبوي المستضعف الذي لو رأى هذه الصورة على ما تحمله من جرأة، لشعر ان أطرافه كلّها مهدّدة وان ذكورته في أزمة؟ ام انها مثل شباب الصخور إضافة،²⁵ وبتواتها تفصح عن مكنونات مكبوتة لديها مثل ما لدى الشاب؟ فإن هذا السلوك في تدخين الأرييلة لا يبدو يشبع الرغبة الحقيقية التي تعطي حقّ المستهلك، كان شاباً ام شابة، قدره من موقع العادة (المقهى) الى البضاعة (تتباك معسل لا عجمي أصلي خالص) او قيمة الوقت (البعد النفسي لإشباع الرغبة) مما يعكس صورة عن الشباب والشابات تميّع الحدود بين الذكورة والأنوثة (التحدّي العلني بالأجسام المكبوتة) وبين الخاصّ والعام (إخراج الأركيلة من المقهى والبيت، حيث يتطلّب الجلوس اليها الاسترخاء والجوّ الهادئ)، وبين الماضي والحاضر (تفشي عادة قديمة بشكل استهلاكي حديث)، وبين الصحي والإستهلاكي (يظن الكثير ان ضرر الأركيلة أقلّ كثيراً من ضرر السجائر لصعوبة استهلاك الأراغيل مثل السجائر، وان العجمي أقلّ ضرراً من المعسل وان الغليون أقلّ ضرراً²⁶ من السيجار).

27 : الأركيلة "العابرة شوارع بيروت"

يهتمّ البيروتي بدخول الحداثة العصريّة وان كان سوق الاستهلاك المرتبط بها يتحكّم بالفرد وبحريّته. وقد أصبحت الأركيلة، بعد ان غيرت سيرتها لأسباب عديدة، "سوقيّة". فقد دخلت من باب الاستهلاك العريض

انظر ما تذكره عزّة بيضون عن أسباب أزمة الذكورة عندنا في الذكورة وتغيّر أحوال النساء: دراسة ميدانيّة، نفس المرجع، 43-45. ²⁵ فقد قدر في المملكة البريطانيّة ما يصل الى 600 مقهى او نادي يقدّم الأركيلة هذا طبعاً قبل حظر التدخين في ²⁶ الأماكن العامة الذي بدأ منذ تموز الأوّل.

أذكر هنا الصديق نادر سراج البيروتي العريق على رفقته في التحري عن هذه المقاهي وله جزيل الشكر ايضاً على فمساعدتي في ²⁷ فتح القواميس اللغوية الفارسيّة المعنية للمصطلحات كالأركيلة والنريج.

الى الشوارع لتصل الى باب منزلك، بسعر زهيد، وكأنها "مومس" لم تكتفي بالجلوس في أماكن غير مخصصة لها، وبتلويين طعمتها بالمطعمات الكيميائية، بل أصبحت تصل بيتك بأداء سريع يحمل بعض الدراما (التمثيل بالشوارع)، لأن الجودة المطلوبة ليست في قيمة التبنك والفحم ونظافة الأركيلة التي "على الأصول" إنما بأداء "سرعة التوصيل" الى البيت. كل ذلك لأجل حداثة عنوانها الاستهلاك السريع.

فقد بدأت تعلن شوارع بيروت ودكاكينها عن توصيل أراغيل جاهزة الى البيت، ايّ أراغيلة "داليفري"؛ بدأت تصل الى المنازل بسعر رخيص خيالي (يصل الى 1500 ل.ل.)، وبطريقة خيالية: يحمل صبيّ على دراجة نارية الأركيلة بين رجليه، ويبيد يسوق الدراجة وباليد الأخرى يحمل الشعلة والجمرة. وهذه المحلات منتشرة في كلّ الأحياء البيروتية، من زقاق البلاط الى الطريق الجديدة الى الضاحية الجنوبية، لا تتقيّد بأيّ قانون يحمي السلامة العامة التي هي من مسؤوليّة الدولة ووظائفها المغيبيّة.²⁸

في زيارة محل أراغيلة "داليفري" (أراغيلة توصيل) في ساحة ابو شاعر لأن²⁹ ترى المقهى/ المسرح الذي سأسميه "مقهى العابر لشوارع بيروت"، إقامة الأركيلة متحركة بين المقهى وبين الدراجة النارية. في اسم المحلّ ما يُذكر بحبّ البيروتي وقدرته على التكيف السريع مع العصري والجديد. فالمحلّ يحمل اسم "تي جاي"، مختصر حرفي لاسم حيّ "طريق الجديدة" النموذجي للطبقة الوسطى وما دون البرويتية. يعمل جلال، صاحب المحلّ، على تلبية المستهلك بأقصى السرعة؛ إذ تعتمد هذه المصلحة الجديدة على سرعة الطلب وتلبيته؛ فطلب الأركيلة ووسيلتها هما: "بدقولي او بعلمولي

²⁸ ان سائق الدراجة النارية الذي يحمل الشعلة والنارة بيد وسويق بيده الأخرى يشكّل خطراً ليس على نفسه فقط إنما على الآخرين خاصة ان عنوان ربحه يأتي من أهمية التوصيل السريع على الطريقة الغربية. لقد أثارت الشركات الإقتصادية المعولمة المسماة "العابرة للقارات" التي تستغلّ الشعوب هذه التسمية.²⁹

او بيعملولي ميسد كول،" ثم تصل التوصيلة خلال دقائق بيد الصبي الذي
يمسك بمقعد الدراجة النارية بيد وبشعلة النار باليد الأخرى ويضغط على
الوقود لتنتقل به الدراجة غير عابئ على سلامته او سلامة المارة. وقد
افتتح جلال المحلّ منذ أشهر بعد ان ترك مصلحة "معلم جفصين" لأسباب
معيشية، فمصلحة الجفصين لم تعدّ تردّ له ما يكفي لقمة العيش، وأصبحت
"بيزنيس" الأركيلة تدرّ دخلاً أكبر في ظروف بيروت الإقتصادية الصعبة،
وفي ظروف إقبال الجيل الجديد على تدخين الأراغيل بإسراف. عندما ننظر
الى شخصيّة جلال نرى صورة طبق الأصل للذكورة الغربية وصورتها

المتلفزة (من تلفاز) والمجولة (من جوال) والمأمركة (العولمة):

حليق الشعر، يلبس بنظالاً واسعاً كاكاي اللون وبجيوب كبيرة، ويربط حول
خصره حقيبة "البانانا" (شكل الموزة) الآخر موضحة، ويتفق هذا المظهر او
"اللوك" مع طريقة إعداد الأركيلة وسرعة التوصيل "داليفيري". سألت
جلال عن نسبة بيع المعسل الى العجمي فأجابني انه عشرين أرغيلة معسل
لواحدة عجمي. وعن نسبة طلب الشباب الى الشابات أجابني "الستات أكثر
من الرجال." والمؤسف في النسب هذه ان نسبة طلب الأركيلة الى البيوت

مثلها مثل الطلب الى الشارع حيث يجلس الشباب (دون الشابات) حول

أرصفتهم مقاهيهم الرخيصة وحياتهم المؤجلة بسبب البطالة العالية. ان في

هذه الحداثة تمييع لمعايير السلامة العامة والسلوك الأخلاقي البالغ

الخطورة، فالأركيلة، كما سبق وقلنا، عادة شعبية عامل الوقت فيها مهم

جداً، لأنها في ثقافة البيروتي وقواعد سلوكه المستترة تلعب دوراً شفافياً

يرتبط بالجانب العاطفي للثقافة، وقدرتها على التعويض عن الفراغ

النفسي، ان بتنشق الدخان او رؤيته او بسماع كركة المياه، لكن في هذه

الأركيلة العابرة الشوارع، التي تصل على أحرّ من الجمر، ما يختزل العادة والسلوكي مما تعدّه الجماعة الإجتماعيّة صحيحاً. هذا اذا لم نسأل عن مصير الذكورة وقيم الرجولة التي ارتبطت صورتها بصورة الأركيلة في مستقرّها في المقهى وفي ثباتها على أرض الواقع. فهل ينسف هذا المقهى العابر لشوارع بيوت صورة الذكر التقليديّة نهائياً بعد ان شبّهنا هذا النوع من الأركيلة ب"المومس" التي تسكن الشارع وتدخل من بيت الى بيت؟

5. عودة الى "مقهى الداخل" و"مقهى الخارج":

ان زيارة سريعة الى "مقهى صليبيا" الذي يقع بين تقاطع شارع صليبيا وشارع المزرعة في بيروت، ترينا طبيعة رواد هذا المقهى النموذجي للمقهى الذي أسميناه "مقهى الداخل". والرواد ليسوا من الشباب او الصبايا، ولا ترى ايّ تهاون من صاحب المقهى او مديره في استقبال القاصرين. ولا يوجد في مقهى صليبيا أراغيل معسّلة، وهذا موقف يتشدّد به صاحب المقهى ورواده الذين يجيبون على ايّ سؤال بالتشديد على أهميّة نوع التنباك وعلى نقاوة هواء المقهى، الذي تلوّثه رائحة المعسلّ العالي الاحتراق. وأصلاً ان نوعيّة التنباك ونظافة الأراغيل لا سرعة التوصيل هي همهم الأوّل، ويحتفظ الكثير منهم بأرغيلاتهم الخاصة في المقهى، لأن الأركيلة بالنسبة الى هذا الجيل هي "مزاج لا هواية"، كما قال لي أبو خالد عن جيل شباب "المعسلّ". زوّار المقهى الشعبي والتقليدي هم من الرجال لا الشباب ايّ لهم دخل ومستقلّون اقتصادياً، وهم من الطبقة الوسطى وما دون الوسطى، موظّفون وأصحاب مصالح وأساتذة مدارس. ولا يوجد في هذا المقهى استرخاء كالشباب الذي يدخّن في مقهى "المول" او مقهى

"الصخور" او "الشارع"، لكن لا يوجد في هذا المقهى سنّات، فعالم الإناث أساساً منفصلاً عن عالم الذكور في هذه المقاهي التقليدية، ولا يوجد ايّ اعتبارات لتقبّل الإناث في هذه المساحة لاعتبارات مستترة تخصّ العصبية الرجولية كما تخصّ التقاليد والأعراف التي لا تجد في مجالس كهذه صورة جميلة للسّت او الفتاة او الأم خاصة ان صورة الأمومة وقيمها من المقدّس في الثقافة المحليّة.

لا تدخل مقهى صليبا السيّدات لأن هذا المقهى يعود الى تاريخ طويل للنظام الأبوي الذي كان يفصل العام عن الخاص بشكل متعارض ايّ وجود الأول يتقيّد بالغاء الثاني، فلا هو يشارك في الخاص ولا هي تتدخّل في العام. فالعام ملكه وسلطته اما الخاص فهو ملك المرأة وسلطتها. كانت ظروف ايام زمان تختلف عن ظروف ايام الحاضر التي أعطت المرأة العاملة خارج البيت شعوراً بالقوّة والثقة بالذات. وقد أكّد لي معظم الذين قابلناهم عن قبول تام وبل إعجاب بالسيّدة التي تدخن الأركيلة مع زوجها، (وهنا التشديد على الزوج مهم جداً)، أكّد لي أحد الأرغليّة قائلاً "حلوة السّت لمّا لكن لم يقل لي حلوة السّت لما تدخّن لوحدها في³⁰ بتدخّن مع زوجها." المقاهي وعلى الرصيف وفي المسابح مما أدخل على بيروت صورة جديدة تزدهم بها الأنوثة والذكورة المسترخية في العن حتى انت ترى هاتين العنصرين تتسامران في التدخين في سياقات إجتماعيّة مختلفة وكثيرة. هذه السياقات حتماً سببها عدم توفّر او قلّة الإكتراث بالأنشطة الرياضية الفعّالة على صعيد الجماعة، والأندية الثقافيّة التي توفّر السينما واللقّات

"الجندر" تعريفاً وبكلام عزّة بيضون هو "الوجه الاجتماعي والثقافي للانتماء الجنسي البيولوجي. ويتمثّل بالمعاني التي يتضمّننها³⁰ انتماؤنا لجنس الذكور أو جنس الإناث، وبالقيم والأحكام الملحقة بهذه المعاني. المخلوق البشري يولد ذكراً أو أنثى، (في أغلب الحالات باستثناء الخنثى)، وهذا هو "جنسه". لكن تتمّ تنشئته ليصبح فتى اة فتاة ومن ثمّ رجلاً أو امرأة، وهذا هو "جنده". هذا، ويتمثّل الجندر واحداً من المبادئ المنظّمة للحياة الاجتماعيّة، وآليّة لتوزيع السلطة والموارد بين الناس. ويستعمل المصطلح صفة لكلمات أخرى، أو مضافة إليها: منها المقاربة الجندرية للتنمية مثلاً، دراسات جندرية، الحساسيّة الجندرية، العمى الجندري، المنمّط الجندري، الاتّجاهات الجندرية إلخ..." انظر بيضون، المرجع نفسه، الهامش 3، ص. 12.

حول العلوم والفنون، وتطوير حضور الحفلات الموسيقية أو إقامتها والمشاركة فيها، كما نراها في المدن الحضارية الخ...

رواد المقهى التقليدي أعضاء مثابرون على ارتياد مقهاهم، كما ان نشاطهم ينصبّ على الداخل لا الخارج، وعيونهم مركزة على طاولة لعبة الورق او طاولة الزهر او فنجان القهوة او الشاي، وعلى دخان أرغيلتهم، ايّ عيونهم مستترة لا تهتم بالخارج لمراقبة الناس او الإساءة اليهم بالنظر. وكثيراً ما ترى أحدهم جالس وحده في نصف المقهى، يراقب ذاته، بينما الآخرون يتحلّقون حول موائدهم المدوّرة الشكل. في هذا المقهى تشعر بالفصل الحادّ بين العام والخاصّ، لكن لا تشعر بتمييع للماضي على الحاضر، وعلاقة المدخّن مع الأركيلة يلعب فيها الوقت والطقس دوراً كبيراً؛ ولا تستخدم أي مدلولات جنسيّة قد تثيرها أجواء الأركيلة (التي تأخذ كل حواسك بسبب دخانها ورائحتها وصوتها ومذاقها) لأن الرجل هنا لا يعي انه يتماهى مع ذكورة الأركيلة التي بها يقاس شكلها ولغتها، والتي بها يتسلّى عن طريق التمسك بالعادة وتناول أطرافها. ولا تضيع حدود الصحيّ والاستهلاكي الذي يضيّع العادة ويحوّلها الى بضاعة، فنصبح نحن حيال العادة بضاعة جديدة. ولما تساوت الأنوثة بالذكورة بحضور الشابات والسيدات مع أرغيلهن في العام، على كلّ المستويات التجارية لسوق الترفيه، أزاح بالطبع صورة هذه الذكورة في المقهى الداخل التي ارتبطت بنظام أبوي قديم وعريق يأبى ان يرى المرأة في ايّ مكان فكيف في المقهى! الرجولة مسؤوليّة وسلطة فوقيّة للأبّ في المقهى كما في الساحة والشارع والرصيف وشاطئ البحر وهو الآن يشارك الأنثى فيها.

نتيجتها أصبحت مدلولات الذكورة تمسك بها الأنوثة بحريّة، وبل أضافت إليها الكثير، من سلوك إناث الحريم الذي حرّم من سنوات الظهور طويلاً.

الاستنتاج:

لقد أخذت هذه الدراسة منحاً أثنوغرافياً لعلاقة تدخين الأركيلة بالعبادات الشعبية، والعبادات الشعبيّة "هي قوى أساسية داخل المجتمع، تنمو لا شعورياً، وكذلك تتقبلها الجماعة لا شعورياً، وهي تتضمن اتجاهات معينة في ذلك قدّمنا شهادة³¹ التفكير والسلوك، فهي باختصار جزاءات أخلاقية." "الأركيلة نزهة" بلسان أحد أعيان بيروت، وشهادة أخرى "الأركيلة مسألة ثقافية" بلسان إحدى سيدات بيروت، لنؤكد على البعدين التاريخي والإجتماعي لهذه العادة التي تدخل فيها انساق اللاوعي عند الجماعة. وقد حوِّظ على اللغة العامية لأنها تعطي صورة واقعية وصادقة لهوية العادة وإجتماعها. وقد قمنا بمقابلات مع أصحاب المقاهي التقليدية (مقهى الداخل) وروّادها وكذلك مع مدراء المقاهي الحديثة (مقهى الخارج) وروّادها، وكذلك قرأنا اتفاقية منظمة الصحة العالمية الإطارية بشأن مكافحة التبغ، ودراسات أقامتها كلية الصحة العامة في الجامعة الأميركية في بيروت على أثر الخوف الذي بات يعبر عن نفسه أزاء صحّة الجيل الجديد من الشباب وهناك كثير من المقالات في الإنترنت مما خصّص لمحاربة³² والصبايا. هذه الآفة، كما خصّصت الحملات لمحاربة السجّارة في الغرب. وقد تفتّشت عادة تدخين الأركيلة عند الشباب كما عند الشابات في بيروت (كما في

انظر رأي سمير في قاموس مصطلحات الإثنوغرافيا والفولكلور تأليف إيكة هولتكر اسن، ترجمة محمد الجوهري، (مصر: دار المعارف، 1960) ص 246.

لم أتطرق الى دواعي التدخين عند الشباب والشابات لكن الدواعي التي تدفع الى الإدمان على تدخين الشجّار هي نفسها، انظر،³² "دواعي الإدمان على التدخين، في محمد بشير شريم، التبغ والتدخين تاريخ وأثار، (الأردن: منشورات الجمعية الوطنية الأردنية لمكافحة التدخين، 1989) 101-103.

بعض العواصم العربيّة والغربيّة)، ذلك لأن مدينة لها تقليد قديم في تدخين الأركيلة، عند الرجل كما عند المرأة، تبدو اليوم مسترخية غير عابئة، كصورة المرأة المرفقة، وقد جلست جاعلةً "صخرة الروشة" مجلسها تدخن من أركيلة هي بالواقع "منارة بيروت"، التي أزيحت مؤخراً من موقعها القديم، كما أزيحت أشياء كثيرة بعد الحرب الأهليّة اللبنانيّة، وقد حولتها الرسّامة الشابة والمبدعة (سارة سراج) من مصدر نور الى مصدر دخان (صورة). فأصبحت بيروت المدينة "الأنثى" التي تدخن أرغيلتها فوق ثوابتها (الصخرة) وحركة النور فيها (ضوء المنارة).

وقد رأينا ظاهرة تفشّي تدخين الأركيلة ترتبط ارتباطاً لصيقاً بالتبناك المعسلّ والمطعم، ايّ المصنّع بعكس التبناك العجمي الصافي. وتدخين المعسلّ مثير للجيل الجديد بسبب طعمه السكريّ وسرعة احتراقه وكثافة دخانه ورخص أسعاره، ايّ مثير ليس للنوعيّة بل للشكل وقيمة الإستهلاك وللصورة التي هي الغالبة في ثقافة اليوم كان تلفازاً- حاسوباً- جوالاً ام "أركيلة"، وكلّها أدوات استهلاكيّة بأطراف ممكن قدر الاحتياج اليها اللعب بها. فالقارئ اليوم لا يقرأ الفكرة المجرّدة في الذهن قدر قراءته للصورة المرئيّة بالعين وهذه الصورة تتعلّق بالمباشر والحسيّ.

اما بالنسبة الى ذكورة الأركيلة التي نحن بصدد فهم تغيير أحوالها، فهذه الذكورة تغيير موقعها من السلطة، بعد ان خرجت من المقهى التقليدي الى الرصيف والشاطئ والصخرة والدراجة الناريّة، ففقدت في نسختها الأبويّة صورتها الموقّرة. ولأن الأنثى شاركت في هذا النزول الى العام والسوقيّة، ولأن سوق الإستهلاك وتشجيع الأهل يساعد على تفشّي العادة، ولأن غياب الدولة يساهم بشكل أوسع على الاستهتار بأمن المواطن وسلامته، أصبحت

الأركيلة وسيلة تميّع الحدود بين العام بالخاص والذكورة بالأنوثة والصحة والإستهلاك. وننهي بوصف تغير صورة ذكورة الأركيلة على الشكل التالي:

أولاً: يعود تمثّل الأركيلة بالذكورة قبل الأنوثة بسبب قياس شكلها لغويّاً على الذكورة البيولوجيّة، وبسبب استحواذ النظام الأبوي في الماضي على صورة المقاهي العامة التي ارتبطت بتدخين الأركيلة. وان كان في الماضي يوجد مساواة، في جيل الأجداد والجدّات، في تدخين الأركيلة في الخاص، امتدّت المساواة اليوم الى الخاص والعام، وقد سمعنا تكراراً في المقابلات التي قمنا بها ان "السنّات تدخّن أكثر من الرجال." فأصبح للأركيلة أنوثتها كما كان لها ذكورتها خاصة بالصورة التي تقدّمها المرأة عن نفسها وهي تدخّن.

اذا كان للأركيلة ذكورة فما هي قيم الرجولة التي ارتبطت بها؟ تظهر قيم الرجولة في صورة الأب، التي سمعناها من شهادة إحدى سيّدات بيروت، في هيبته ووقاره ومسؤوليته التي يأخذها على عاتقه في رعاية العائلة، والحفاظ على سمعتها. وكان الأب، بالنسبة الى الأم والأبناء والبنات مخيفاً لأن نظامه الأبوي متشدّد يقيد حركة الفتى والفتاة خارج البيت وسلوكهم في العام (لم يكن الشاب بالماضي يدخّن أمام أبيه بتاتاً!) ويحمل هذا النظام الأبوي معاني كثيرة من اعتبارات الناس ونظرتهم التقليديّة الى نظام الأسرة والحرية الشخصية والحراك الاجتماعي. ويمثّل الأب السلطة المهيمنة بامتياز فهو ربّ الأسرة والعمل، تحمل أفراد العائلة اسمه ويبيده سلطة القرارات المصيريّة، وأيامه كانت المرأة بالكاد دخلت

ميدان التعليم. وصورة الأب هذه تراعى فيها كثير من تقاليد السمعة الطيبة³³ والصورة الموقرة وهذه صورة تغيّرت عند الجيل الجديد.

تغيّرت وظيفة المقاهي الحدائبة التي أتينا على وصفها، والقليل منها حافظ على الدور التقليدي للمقهى الذي يوظف كدور الأندية او للنشاط السياسي، كارتباطه بالزعامات البيروتية او تنشيطه كمفتاح في أوقات الإنتخابات وكانت صورة المقهى، برجاله وأراغيله، تعبّر عن مجتمع³⁴ النيابية. ذكوريّ سعيد بفصل العام عن الخاصّ، واثق من مساحته التي لا تشارك بها الأنثى وترميزاتها. لكن الرجل اليوم سعيد أيضاً بخلط العام بالخاصّ وحتى بتمييعه، وكثير من الشباب (لا الآباء) أعربوا عن قبولهم لتدخين البنّت والستّ في العام خاصة ان المرأة تنافس اليوم الرجل في فرص العمل. لكن لماذا تنافس المرأة في هذه السلعة المضرة عوض عن إضافتها القيم الرعائبة والصحية التي تشتهر بها؟ حتى أصبحت المقاهي " تعرف بستناتها لا برجالها".

تغيّرت الذكورة التقليدية، وعيون مدخّن الأركيلة المستترة في المقهى التقليدي "مقهى الداخل" (وأركيلة "العجمي" بتتباكها الأصلي)، الى ذكورة مستهترة وعيون حشريّة في "مقهى الخارج" (وأركيلة "المعسل" بتتباكها المصنّع). واغتربت الذكورة الجديدة عن "فولكلور الأركيلة"، خاصة في مقاهي الشارع او التي على صخور البحر او العابرة شوارع بيروت، بسبب أولوية الاستهلاك وسرعة التوصيل لا طقس العادة وأهمية الترفيه النفسية. وبعد ان كان صاحب المقهى هو المهتم برواد المقهى أصبحت الشركة هي التي تهتم بالمقهى، وأصبح اسم صاحب المقهى حروف أبجدية

لتغيّر معاني الرجولة انظر، عزّة بيضون، الرجولة وتغيّر أحوال النساء: دراسة ميدانية، (بيروت: المركز الثقافي العربي، 2007).³³
انظر، شوقي الدويهي، تاريخ مقاهي بيروت الشعبية 1950-1999، (بيروت، دار النهار للنشر، 2005).³⁴

فاختفت المسمّى وراء شركات تجارية لا تراعي ايّ اعتبارات ثقافيّة محلّيّة، ولا تتماثل بقيم الرجولة بل بالثقافة الأميركيّة، وقيم العولمة القائمة على الاستهلاك والاختزال السريع للهويّات المحليّة.

وإذ تقوم المدن الغربيّة وعواصمها اليوم بأكبر حملة لتنظيف مقاهيها ومدنها من التدخين على أنواعه، لكن لا ترى ضرراً من شرب الكحول في هذه الأماكن. بينما ترى المدن العربيّة والإسلاميّة شرب الكحول آفة الآفات ولا ترى للتدخين على أنواعه خاصّة الأراكيل على انه آفة؛ مع ان أضرار التدخين خطرة على الصّحة وأضرار الكحول على المجتمع ونظام الأسرة. اذا تدخين الأركيلة عند الشرقي كشراب الكحول عند الغربي مما يعني ان القيم والمفاهيم يمكن ان تختلف النظرات إليها من حضارة الى أخرى، وما يمكن ان يكون مقبولاً في الشرق قد لا يكون مقبولاً في الغرب، والعكس صحيح. ويعني ايضاً ان هذه المعايير ليست شاملة او ثابتة.

اما بالنسبة الى علاقة الذكورة وجسدها والأنوثة وجسدها بالأركيلة فقد حلّانها في صورة شباب الصخور واسترخاءهم، وفي صورة الحوريّة واستلقاءها. وقد قلنا ان هذا الإعلان الذكوري يحمل رسالة الى مشهد بيروت العام، يتراجع به الشاب عن الصورة الأبويّة التقليديّة والسويّة التي لم تكن تعرض أجسادها بهذا الشكل مما يدلّ على شعور بالنقص أزاء التغيّرات/ وهو يفصح عن طاقة جنسيّة مكبوتة من المفترض ان تمسك بيدها أشياء كثيرة كالعمل والطموحات والزواج عوض عن التبرّج بإمساك النبريج والأركيلة؟ وهذه الذكورة لا تستحي ان تميل وتسترخي وتتأمّل فولكلورها الضائع وذكورتها المؤجّلة.

ومن النتائج المهمة التي أظهرها هذا البحث ان تدخين الأركيلة بين الشباب والشابات على هذا الشكل المبالغ به، ساعده ايضاً ظروف غياب الدولة عن مراقبة المقاهي والاستهلاك والإعلام الغير هادف وغيابها عن رعاية الصحة العامة. إضافة الى ظهور صورة جديدة للذكورة هي طبق الأصل للذكورة الغربية وصورتها المتلفزة (من تلفاز) والمجولة (من جوال) والمأمركة (العولمة) التي رأيناها في صورة مقهى التوصيل " داليفيري"، الذي يقوم بممارسات تلغي معايير السلامة العامة والسلوك الأخلاقي الذي يختزل العادة وما تعدّه الجماعة الإجتماعية صحيحاً وطيباً.

كلمة أخيرة:

ان كان في بيروت دخان يصعد من إحداث العبوات الناسفة للأرواح فإن فيها دخان يشتعل تحت الرماد بيد شاب كما بيد شابة مخدرة ومستلقية ومسترخية، على أقله حتى الآن.